

مظاهر المقاومة في شعر معروف رفيق؛ ديوان "فلسطين.. الجرح والطريق" نموذجاً

حامد پورحشماتي (الكاتب المسؤول)*

صدف پورشيريني آق مسجد**

الملخص

شعر المقاومة لم يكن مجرد تعبير فني، بل أداة سياسية واجتماعية لتحريك الوعي الجماعي أيضاً. يندرج في ضمن شعراء المقاومة اسم الشاعر الفلسطيني معروف رفيق؛ فتجسد أشعاره عناصر أدب المقاومة الفلسطينية في أشكال مختلفة وتدلّ دلالاتها على أنه جزء من حركة أدبية وسياسية واسعة تهدف إلى تعزيز مدى التضال في فلسطين المحتلة. يُعرف شعر معروف رفيق بأدب ملتزم بالقضايا الوطنية، ويعكس معاناة الشعب وتطلّعاته نحو الحرية والاستقلال؛ فسيؤدّي تحليل مضامين شعره إلى عرض مدى ميله العميق إلى تصوير جوانب احتلال فلسطين وثبات أبناء وطنه الفلسطينيين في ساحات النضال. تهدف هذه الدراسة التي تعتمد على المنهج الوصفي - التحليلي، إلى استكشاف أبرز مظاهر المقاومة وتحليلها في ديوانه الموسوم بـ "فلسطين.. الجرح والطريق" وتشير نتائج البحث إلى أن الشاعر يركّز في أشعاره على أبرز التحديات التي تواجه موطنه ويصوّرها بأشكال مختلفة نحو استدعاء فلسطين المحتلة، واستلزام تحقيق الوحدة العربية الكبرى، وضرورة الجهاد للدفاع عن الوطن ومواجهة العدو، وتكريم الشهداء، بالإضافة إلى رفض السياسة الانتقادية للشرق والغرب بحيث إنّ كلّ ذلك يمكن أن يشكّل إلى حدّ بعيد الأسس الجوهرية لشعره المقاوم.

الكلمات الدلالية: شعر المقاومة، فلسطين، معروف رفيق، ديوان "فلسطين.. الجرح والطريق"، مظاهر المقاومة.

*. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كيلان، كيلان، إيران

poorheshmati@guilan.ac.ir

**. خريجة ماجستير في فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة كيلان، كيلان، رشت، إيران

تاريخ القبول: ١٤٤٧/٠١/٢١ق

تاريخ الاستلام: ١٤٤٦/١٢/٠٨ق

المقدمة

أدب المقاومة أحد أبرز المظاهر النابضة في الأدب العالمي؛ إذ يمتلك تأريخاً عريقاً ومكانة رفيعة تستند إلى قيم ومعتقدات جوهرية؛ فهو من الركائز الثقافية الأساسية، ومن أبرز سمات النهضة السياسية والاجتماعية لأي أمة، حيث يلعب دوراً مهماً في تشكيل الوعي العام، وتحفيز الحركات التحررية، ومقاومة الاستبداد. إلى جانب ذلك فإنه يحمل قيمةً فنيةً وجمالية عميقة (پورحشمی وروشنفکر، ١٣٩٩ش: ١٢٨)؛ إذ يجسّد بأبهى صورة أدبية تضحيات الأمة ومفاخرها ونضالاتها. شعر المقاومة أحد أبرز الفروع الأدبية التي نشأت نتيجة للصراعات السياسية والاجتماعية حيث يُعبّر عن رفض الظلم والاستبداد ويعكس تطلّعات الشعوب نحو الحرية والاستقلال. لقد لعب هذا النوع من الأدب دوراً محورياً في توثيق معاناة الشعوب المقهورة وتحفيزها على النضال مما جعله ظاهرة أدبية تستحق الدراسة والتحليل. يُعرف شعر المقاومة بأنه كل إنتاج أدبي يجسّد روح الصمود والتحدّي، سواء كان ذلك في شكل مقاومة عسكرية أو سياسية أو ثقافية أو فكرية.

تبرز أعمال العديد من الشعراء الذين كرّسوا كتاباتهم لنقل معاناة شعوبهم وتعزيز روح المقاومة، ومن بينهم الشاعر الفلسطيني معروف رقيق الذي عكس في ديوانه "فلسطين.. الجرح والطريق" ملامح الصمود الفلسطيني في وجه الاحتلال والاضطهاد. تُمثّل قصائده نموذجاً بارزاً لأدب المقاومة حيث تحمل في طياتها مضامين تدعو إلى الحرية، وتُجسّد تضحيات الشهداء، وتنتقد سياسات الهيمنة والاستعمار. إنّ هذا الديوان يزيل الستار عن جانب محوريّ من شعر شاعر فلسطيني يمارس تصوير استقلال فلسطين وثبات أبنائها في ساحة القتال ويبدى مدى تمسّكه بفكرة استقلال فلسطين كمركزية في إنتاجه الأدبي. يحمل شعره رؤية مستقبلية متفائلة ساعية إلى تعزيز الأمل والتصميم لدى الجمهور ويحظى بجانب بطوليّ يتمّ فيه تصوير الشعب الفلسطيني المقاوم كمجموعة من الأبطال الذين يقاومون الظلم ولا يطبقونه؛ فيمكن أن تُفهم فكرة المقاومة في هذا الديوان على مستويين شاملين: المستوى الماديّ يعود إلى المقاومة المسلّحة أو المدنية التي تختصّ ببذل الجهود لتحرير الأرض من الاحتلال وتتناول موضوعات مثل البطولة،

والتضحية، والكفاح المسلح، ممّا يكرّس الروح القتاليّة لدى الجمهور. والمستوى المعنويّ هو الصمود النفسى والثقافى الذى يعزّز الروح المعنويّة للشعب ويساعد فى الحفاظ على الذاكرة الجماعيّة عندهم، بعبارة أخرى يشير إلى قدرة الأفراد والمجتمعات على الحفاظ على معنويّاتهم وقوّتهم الداخليّة فى مواجهة الظروف الصعبة. يتناول هذا الجانب موضوعات مثل الأمل، والإصرار، والتحدّى، ويكون وسيلة لتعزيز الروح المعنويّة للشعب، ممّا يساعدهم على الاستمرار فى النضال رغم التحدّيات وكذلك يومئى إلى الحفاظ على الهوية والتراث الفلسطينيّ فى مواجهة محاولات الطمس والتهويد للحفاظ على الثقافة الفلسطينيّة ونقلها إلى الأجيال القادمة. يستخدم معروف رفيق فى ديوانه لغة بسيطة لفهم أساليبه الأدبيّة واللغويّة، لكنّها عميقة ومؤثّرة فى تحفيز الجمهور وتعزيز روح المقاومة وكذلك تعزيز الوحدة الوطنيّة وكيفية تفاعلها مع العالم العربى ممّا يساهم فى تشكيل صورة القضية الفلسطينيّة على المستوى الدولى ويقوم بتذكير الشعب بأهدافه المشتركة.

أهميّة البحث

تكمن أهميّة الدراسة وضرورتها فى تحليل أبرز مظاهر المقاومة فى ديوان معروف رفيق معتمدة على منهج وصفى - تحليليّ يمتاز بقدرة فائقة على وصف الظاهرة الأدبية وإبداء الميزات الأدبية من فكريّة وفنيّة وجماليّة؛ فيستعرض البحث مظاهر المقاومة الرئيسيّة فى شعر معروف رفيق، ويبين مدى تأثيره فى تشكيل وعى القارئ وتوثيق الذاكرة الجماعيّة للشعب الفلسطينيّ؛ فمن خلال ذلك تسلّط الدراسة الضوء على الأبعاد الجماليّة والفكريّة التى تجعل من أدب المقاومة أداة فعّالة فى تعزيز الهوية الوطنيّة والتصدّى لسياسات التهميش والقمع.

أسئلة البحث

١. ما أبرز مظاهر المقاومة فى ديوان "فلسطين.. الجرح والطريق" لمعرف رفيق؟
٢. ما الأفكار والدوافع والأغراض التى يسعى الشاعر إلى إيصالها من خلال تجسيد كلّ عنصر من عناصر الصمود والمقاومة فى ديوانه؟

خلفيّة البحث

دراسة مظاهر المقاومة من المواضيع الهامة التي تمسك بها الشعراء المعاصرون كثيراً وتوجد بحوث عديدة في هذا المجال على نحو كتاب «الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ - ١٩٦٨» لغسان كنفاني وكتاب «ملاح في الأدب المقاوم - فلسطين نموذجاً» لحسين جمعة وكتاب «أدب المقاومة.. المفاهيم والمعطيات» للسيد نجم وكذلك كتاب «أدب المقاومة؛ بين الواقع والطموح» لمنيف أحمد حميدوش و... أما حول البحوث التي تعنى بشاعرنا معروف رفيق في هذا المجال أو المجالات الأخرى فيجدر بالذكر أنه لم يتم حتى الآن إجراء بحث ملحوظ في شعره؛ لذلك يمكن أن تكون هذه الدراسة من الخطوات الأولى في التعرف إلى خصائصه الشعرية، خاصة في مجال أدب المقاومة.

الشعر الفلسطيني المقاوم

لقد عكس الشعر العربي المعاصر من خلال كلماته الساحرة والنشيطة روح الشعب الفلسطيني وقدرته على الصمود والتحدى وكان مصدر إلهام للأجيال الجديدة لمواصلة النضال من أجل الحرية والعدالة. «الشعر هو فن المقاومة في لحظة حضور نادراً ما يتنبأ بالكارثة وقليل ما يؤرخ للهزيمة ولكنه دائماً في خط النار بل خط القتال الأول من الجبهة والشعر هو فن المقاومة بمعناها الوطني.» (شكري، ١٩٧٠م: ٣٥١) شعر المقاومة واحد من أبرز أشكال التعبير الأدبي الذي يدوّى معاناة الشعب الفلسطيني ونضاله من أجل الحصول على الحرية والاستقلال. شعر المقاومة هو الشعر الملتزم الذي يصرح بالحقائق دون تعقيد ويحمل في خطابه هدفاً تعليمياً (شيماء وبمينه، ٢٠١٩م: ٣٨)، فيعتبر هذا الشعر مرآة تعكس الواقع السياسي والاجتماعي لفلسطين، حيث يجسد آمال الشعب وأحلامه، ويوثق تاريخ المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي.

يتميز الشعر الفلسطيني المقاوم بقوّته العاطفية والرمزية، فيمكن أن يتبلور هذا التميز في شعر المقاومة في عناصر أساسية تشمل «الإيمان بالشعب والثقة بقدرته على اجتثاث الظلم واليقين المطلق بانتصاره الآتي. يتميز بتلويحه بين التمرد وطلب الحرية للوطن ولل فرد كما تميّز شعر المقاومة بتكريم الشهادة وإبراز أهمية التضحيات التي

قدّمها الشهداء ليكونوا منارة تشعل الطريق ويقتدى بها جيل كبير هو جيل المقاومة». (حلوانى، ٢٠٠٥م: ٢١٥) لقد ظهر شعر المقاومة فى فلسطين كردّ فعل مباشر على العدوّ الإسرائيليّ الذى بدأ بشكل واضح بعد نكبة ١٩٤٨م، والتّى أدّت إلى تهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين من ديارهم ومنذ ذلك الحين، أصبح الشعر وسيلة رئيسة للتعبير عن الألم والفقدان، وكذلك لإلهام النضال والمقاومة. «شارك الأدباء فى كلّ الأحداث الوطنيّة ونظموا قصائدهم المقاومة التي تواجه المأساة وتفضح أساليب المحتلّ وتبثّ الوعي الوطنيّ بكلّ ما يجرى...» (جمعة، ٢٠٠٩م: ٧)؛ فقد برزت أسماء لامعة فى هذا المجال، مثل محمود درويش، سميح القاسم، وتوفيق زياد، الذين أصبحوا رموزاً وقوّاداً للشعر الفلسطينيّ المقاوم.

نبذة عن معروف رفيق

إنّ معروف رفيق شاعر فلسطينيّ معاصر وُلد فى ٢٠ نوفمبر من سنة ١٩٣٥م فى بلدة عنتبا. تلقّى تعليمه فى طولكرم بالضفة الغربيّة، ثم انتقل إلى بيروت حيث حصل على درجة البكالوريوس فى القانون من جامعتها. عمل فى مجال التعليم فى فلسطين والأردن والمملكة العربيّة السعوديّة، ثمّ فى قطر حيث عمل أيضاً فى مجال الإعلام وتولّى مناصب رفيعة مثل رئاسة العلاقات العامّة ووزارة الداخلية. تمّ تعيينه فى قطر مستشاراً ثقافياً لخالد بن محمد آل ثانى ومنحته الحكومة القطريّة الجنسيّة تقديرأً لجهوده. يتميّز شعر معروف رفيق بتأكيد على قيم الصمود والانتماء للأرض العربيّة والقوميّة. إنّه لم يتسامح مع العدوان على فلسطين؛ لذا تناول فى ديوانه "فلسطين الجرح والطريق" الصادر عام ١٩٨٥م قضية فلسطين، ودعا إلى الوحدة العربيّة الكبرى، وأكّد على ضرورة الجهاد، وتكريم الشهداء، ورفض الكفر، كما انتقد السياسات العالميّة وأشاد بدور الشخصيات التاريخيّة فى مواقف قريبة من مبتغاه. له عدة دواوين شعريّة منها «ابتهالات» و«فلسطين الجرح والطريق» و«بذور الكرامة» و«قطر على شفة الوتر»، و«القدس قصيدتي» و«أشعار للفتيان والفتيات»، ومن كتبه: «فى الأمن والسلامة». نال جائزة نشيد الكشف من وزارة المعارف فى حكومة قطر وشهادة تقديرية من وزارة

الإعلام (إذاعة قطر) ووزارة الداخلية القطرية ونادى الجسرة الثقافي القطري ومركز شباب الدوحة كذلك حصل على الميدالية الذهبية لجائزة محمد إقبال. توفي معروف رفيق يوم ٩ مايو ٢٠٠٥م في الدوحة.

عناصر المقاومة في ديوان "فلسطين.. الجرح والطريق" أ: استدعاء فلسطين

فلسطين دولة إسلامية عاصمتها القدس، وهي أرض سكنها المسلمون والمسيحيون واليهود على مرّ العصور. مع احتلال إسرائيل لفلسطين عام ١٩٤٨م، اندلعت صراعات ونزاعات مستمرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وعُرفت بالنزاع الفلسطيني - الإسرائيلي، ولا تزال مستمرة حتى اليوم. في حرب أخرى (حرب الأيام الستة)، رفضت إسرائيل أيّ انسحاب من الأراضي التي احتلتها، كما رفضت الاعتراف بحقوق الفلسطينيين وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم (المرعشلى والآخرين، ١٩٩٦م: ١٧٧). معروف رفيق كان دائماً يولى قضية فلسطين اهتماماً خاصاً حيث شكّلت هذه القضية جزءاً كبيراً من أشعاره في دواوينه المختلفة، خاصة في ديوان "فلسطين.. الجرح والطريق"، الذي يعكس فيه الشاعر معاناة الشعب الفلسطيني، ويدعو إلى الصمود والمقاومة، ويؤكد على وحدة الأرض العربية وضرورة التحرر من الاحتلال:

فلسطين إن عاثَ فيكِ العدى وإن باتَ يسقيك كأس الردى
فصبراً إذا ما استحرّ الفدا ملأنا ملأنا الربا والبطاح

(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٤٧)

يتحدّث الشاعر في هذه الأبيات عن ضرورة صبر فلسطين وثباتها في وجه العدوان؛ فهو يخاطبها مباشرة ويشير إلى أنها تتعرّض للعدوان، لكنّه يوصيها بالصبر حين يشتدّ القتال (إذا ما استحرّ الفدا). ينتقل الشاعر إلى صورة أخرى تشير إلى المقاومة والتحدى، حيث يوضح أنّه حتّى لو سُقيت فلسطين كأس الموت (الردى)، فإنّ أبناءها يكثرّون ويملؤون الجبال والسهول بمشاركتهم النشيطة، ممّا يرمز إلى الانتفاضة الشعبية والاستمرارية في المقاومة. يشبّه الشاعر في (عاثَ فيكِ العدى) العدوان

بالفساد أو التخريب حتّى يُجلى مدى الدمار الذي يلحق بفلسطين. هذا وقد استخدم الشاعر في صورة (يسقيك كأس الردى) استعارة تشير إلى الموت أو الدمار؛ إذ يتمّ فيها تصوير العدوان على أنّه سقاية لفلسطين بكأس الموت. يعمل معروف رفيف في البيت الثاني مثل عدديد من الشعراء بحتم القصيدة بالبشارة بالانتصار والفرج ليمنح شعبه الأمل والثقة؛ فجاء بجملة (ملأنا الرُّبا والبطاح) ليعرض صورة الامتلاء والقوّة عند للمقاتلين الذين سيعيدون تحرير الأرض المحتلّة ويملؤون أراضيها بالصمود والمقاومة؛ لذلك يتمّ تكرار فعل (ملأنا) تكراراً لفظياً يهدف إلى تأكيد حتميّة وقوع الحدث؛ لأنّ «التكرار يسلّط الضوء على نقطة حسّاسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلّم بها...، يضع بين أيّنا مفتاحاً للفكرة المتسلّطة على الشاعر وهو بذلك أحد الأضواء اللاشعوريّة التي يسلّطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها بحيث نطلع عليها» (الملائكة، ١٩٨١م: ٢٧٧ و٢٧٦)، فجاء تكرار فعل (ملأنا) للكشف عن النقطة الحسّاسة في الشعر وهي النجاح والانتصار أمام الأعداء.

يعكس الشاعر رؤية شعريّة مفعمة بالأمل في فلسطين رغم ظروفها القاسية، فيسعى إلى إحياء الروح الوطنيّة وحثّ الشعب على التمسّك بحقوقه وعدم الاستسلام للأعداء. يشير الشاعر إلى الضعف في فلسطين كي يستعيد الشعب قوّتهم، ويكونوا قادرين على التغلّب على الأعداء بمساعدة بعضهم البعض وبتفعيل الروح الوطنيّة العالية عندهم. يوقظ الشاعر نوعاً من الإحساس بالوطنية في شعبه من خلال دعوة الناس وبثّ الحياة في فلسطين ووضعها في موقف الضعف:

ويا كُلَّ طفلٍ، ويا كُلَّ كهلٍ ويا كُلَّ ليثٍ، ويا كُلَّ شبلٍ
فلسطين نادَتْ أيا كُلَّ أهلي فقالوا سَمعنا... وأنت منا

(رفيف، ٢٠١٣م: ٤٥٢)

هنا يتحدّث الشاعر عن القتل والمجازر التي فُرِضت على شعب هذه الأرض، حيث إنّ المعاناة والمحن دفعت فلسطين إلى مناداة جميع أبنائها، من الأطفال والشباب إلى الشيوخ والكبار، داعيةً إيّاهم للنهوض والعمل على إنقاذها. لقد استجاب الشعب لندائهم، فهبّوا إلى ساحة المعركة دفاعاً عن أرضهم وبهذا الشكل، يمدح الشاعر تضحيات

الفلسطينيين. يتميّز هذان البيتان بروح حماسية ووطنية، ويديان التلاحم الشعبي والمقاومة الجماعية مستخدمين أسلوب النداء المباشر والصور القوية لتدعيم الشعور بالمسؤولية تجاه الوطن. يسبغ تكرار أداة النداء "ويا" في (ويا كُلُّ طفل، ويا كُلُّ كهل، ويا كُلُّ ليث، ويا كُلُّ شبل) "الإيقاع الموسيقي على الأبيات ويزيد من الحماسة والقوة فيها. كما أن هذا النداء مع تكرار كلمة "كل" يضيف إحساساً بالحضور الجماعي ويشجّع على التفاعل العاطفي مع النصّ أي يشدّد على شمولية الدعوة لجميع أفراد الشعب دون استثناء. يتطرّق الشاعر في البيت الأول إلى تعظيم المناضلين عن طريق التشبيه، حيث يشبّه أطفال وطنه بالأشبال (صغار الأسود) والشيوخ بالليوث (الأسود البالغة) وذلك أن «الأسد في الأدب العالمي رمزٌ للقوة والشجاعة» (سليمي وسليمي، ١٣٩٠ش: ١٦٥)، فاستخدام الليث (الأسد) والشبل (ابن الأسد) رمز للشجاعة والمقاومة، حيث يشير إلى قوّة الرجال وحماسة الشباب الصغار. جعل الشاعر في البيت الثاني (فلسطين نادت) فلسطين شخصاً ينادى شعبه، وهي استعارة تجسّدية تعطي الوطن طابعاً حياً يشعر بالنداء ويحثّ على الاستجابة.

يصف الشاعر صورة مأساوية قائمة تظهر الفقر والحنة في فلسطين تحت الاحتلال مثل الدمار، والتهجير، والقتل، والتشريد. هذا الوصف ليس مجرد نقل للمأساة، بل دعوة للشعب الفلسطيني والعالم العربي إلى التحرك والنضال بوصفها نقطة إلهام الشعب للمقاومة:

دَسَّ على أرضي هنالك يَجُثُّمُ فأنيها نوحٌ يَينُ فيكتمُ
والعائدون بكلّ أرض شُرِّدوا والنذلُ بات بأرضهم يتنعمُ
زَرَعَ الجرائم، والرصاصُ نصيرُهُ فعلى جبين الشمس منهم جرائمُ
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٦١)

يشير معروف رفيق في هذه الأبيات أيضاً إلى مظلومية وطنه وقساوة عدوّه بأسلوب خطابي صارخ يعتمد على ألفاظ مثيرة لمشاعر الألم والغضب مثل الدنس، والجرائم، والرصاص، والتشريد والأئين، والنوح. هذه الصراحة في الخطاب من ميزات شعر المقاومة؛ ف«لشعر المقاومة كما للخطاب القومي في الحياة العربية المعاصرة صور

وتجليات بارزة منها السياسى المباشر والإيدئولوجى أيضاً ومنها الإعلامى والحماسى.» (حلوانى، ٢٠٠٥م: ٢١٨) يستخدم الشاعر نبرة حادة ومباشرة فى وصف الاحتلال وظلمه؛ فمن جهة يُبرز خبث الأعداء ومكرهم وخداعهم تجاه فلسطين، ومن جهة أخرى يصوّر حال أبناء وطنه اللذين لم يعودوا يعيشون فيه. يذهب الشاعر إلى أنّ الوطنيين الحقيقيين (العائدون) قد شردوا وتعرضوا للتهجير، بينما بقى المحقرون (النذل) فى الديار. هذه الكارثة عظيمة لدرجة أنّها تركت أثراً بالغاً كالبقعة على جبين الشمس. إنّ الشطر الأوّل (دنس على أرضى هنالك يجثم) ينطوى على استعارة تصوّر الاحتلال كأنّه دنسٌ قذر متشبّث بالأرض، ممّا يدلّ على قمّة كره الشاعر له. ثمّ قوله (فعلى جبين الشمس منهم جرائم) استعارة أقوى تجعل جرائم الاحتلال واضحة مثل الشمس حيث يؤكّد استحالة إنكارها.

لا يكتفى الشاعر بوصف المعاناة فحسب، بل يقدّم رؤية مستقبلية تعتمد على قوّة الشباب وإرادتهم؛ فهو يعتقد أنّ هؤلاء الشباب، بروحهم الثائرة وإصرارهم، هم القادرون على تحرير فلسطين من براثن الاحتلال. إنّ معروف رفيق فى العديد من قصائده التى تتناول الصمود والمقاومة، يتحدّث عن الشباب ودورهم المحورى فى استعادة فلسطين المحتلة ويبشّر بالنصر بأيديهم. فلا بدع فى ذلك أنّ شعراء المقاومة يعتقدون بأنّ «النصر آتٍ لا مناص على أيدى شبابه الثائر إذ يقبلون هلى الموت سراعاً.» (ماضى، ٢٠١٣م: ٦٦) يذهب معروف رفيق أيضاً إلى أنّ الشباب الفلسطينيين يتمتّعون بنفس الصلابة والقوة التى تميّز بها الأرض الفلسطينية ولا يعرفون اليأس ولا يستسلمون للظروف:

هذى فلسطين وذاك شبابها لا عاش فيهم يائسٌ يتجمّم

(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٦٥)

هنا يعرب الشاعر عن اعتزازه بفلسطين وشبابها ويستخدم أسلوباً تحفيزياً يقوّى روح المقاومة والصمود مشدداً على عزيمتهم القويّة وإرادتهم التى لا تلين؛ هذه الصورة صورة مشرقة للشباب الفلسطينيين، تنفى عنهم اليأس والتخاذل وتحمل رسالة قوية مفادها أنّ شباب فلسطين لا يعرفون التردّد أو الخنوع، بل هم ثابتون فى طريقهم نحو الحرية بكلّ إصرار. يستخدم الشاعر فى قوله (لا عاش فيهم يائس) أسلوب نفى

قوى يعكس رفض الاستسلام واليأس بين الشباب الفلسطينيين. هذا الأسلوب تحفيزيّ وحماسيّ قائم على النفي القاطع لليأس وإبراز الصلابة والروح القتالية للشباب. هذه الصلابة تعكس إرادتهم القويّة ورفضهم للاستسلام، مهما كانت التحديات؛ لأنّهم لا يقفون مكتوفى الأيدي، بل يواصلون القتال بكلّ عزم وإصرار وبروح عالية وإيمان راسخ بحقّهم فى الحرّية، كما يرمز الشاعر فى فعل (يتجمجم) إلى التردد والخوف الذى ينفيه عن شباب فلسطين تماماً وينصّ على أنّه لن يوجد بينهم من يتردّد أو يتلعثم خوفاً؛ فهم أقوياء فى مواجهة التحديات، ولا يسمحون للخوف أن يعيق طريقهم نحو الحرّية.

ب: الوحدة العربيّة

يتناول الشاعر فى ديوانه المعنى قضية الوحدة العربيّة وتأثيراتها السياسيّة والاجتماعيّة فى العالم العربى؛ لأنّ «البعد العربى فى الأدب الفلسطينى كان دائماً ظاهرة أساسيّة وليس ارتباط أدب المقاومة الفلسطينى الراهن بهذا البعد وتعميقه ووعيه إلّا استمراراً لتلك الظاهرة تأريخيّاً». (كفانى، ١٩٦٨م: ٧٥) يطلق الشاعر فى عدّة مواضع من ديوانه على هذه الوحدة اسم الوحدة الكبرى ويجعلها كحلّم عربى مشترك يتبدّل إلى غاية إستراتيجيّة بين البلدان العربيّة رغم كافّة التحديات التى تواجهها الدول المقاومة آنذاك:

قل للجزائر كم شهيدٍ قدّمت	تُجّب الحقائق ألفَ ألفَ شهيدٍ
سلّ ثالث الحرمين عن شَهادتها	كم ودّعت من أسدّها والصيد
لمن الضحايا؟ والدماءُ زكيةٌ	لمن الجنودُ على الربا والبيدِ
لمن الحُداءُ وأغنياتُ فى السرى	لمن القصائدُ إثرَ كل قصيد
لليوم، هذا اليومُ أعظمُ شاهدٍ	للوّحدةِ الكبرى، ليوم العيد

(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٥٧ و٤٥٦)

يعبّر الشاعر من خلال هذا الجزء من القصيدة عن رؤيته العميقة لتأريخ النضال العربى، حيث يربط بين تضحيات الجزائر وفلسطين كرمزين للصمود والتضحية. هو لا يكتفى بذكر الماضى، بل يربطه بالحاضر، حيث يرى أنّ الدماء التى أريقت والأشعار

التي كُتبت هي من أجل بناء واقع عربيّ أفضل؛ فقلوه (قل للجزائر كم شهيد قدّمت؟) أسلوب استفهام يوحى بكثرة الشهداء، ولا ينتظر إجابة، بل يبرز فداحة التضحيات. يذكر الشاعر الجزائر كنموذج للنضال والتضحية، حيث قدّم شعبها العديد من الشهداء في سبيل الحرّية. هذه الإشارة تعكس تقدير الشاعر للنضال الجزائريّ ضدّ الاستعمار. يستخدم الشاعر رمزيّة المسجد الأقصى والأسود (رمز الشجاعة والتضحية) للتأكيد على أهميّة الدفاع عن الأرض والمقدّسات. هذه الرمزيّة تعكس ارتباط القضية الفلسطينية بقلوب العرب جميعاً. بعد ذلك يطرح الشاعر أسئلة تبتدئ بـ "لمن..." وتتكرّر في الأبيات، ليجلّي إصراره على توضيح أنّ كلّ تلك التضحيات كانت من أجل التحرير والوحدة. سرّ جمال الاستفهام البلاغيّ في شعر المقاومة خاصّة إعطاء الكلام حيويّة وروعة والزيادة من الإقناع والتأثير وكذلك إثارة السامع واستقطاب عنايته وإشراكه في التفكير حتّى يصل بنفسه إلى الإجابة. «(ملاّبراهيمي، ١٤٣٧ق: ١٤٣) الإجابة الواضحة تدلّ هنا على أنّ كلّ هذا من أجل عالم عربيّ اليوم، اليوم الذي يُعدّ أكبر شاهد على الوحدة العربيّة الكبرى، والذي يُشار إليه باعتباره العيد العربيّ. يعتبر الشاعر الوحدة العربيّة حلمًا يمكن تحقيقه، ويشبّهها بالعيد، ممّا يعكس تفاؤله وإيمانه بمستقبل مشرق للأمة العربيّة.

يواصل الشاعر حديثه عن تأثير هذه الوحدة بين الدول العربيّة في تحقيق النصر على الأعداء ويكون متفائلاً بذلك؛ فلا عجب في هذه النظرة؛ إذ «كان شعر المقاومة وأدبها على العموم متفائلاً منذ البدء». (كنفاني، ١٩٦٨م: ٨٥) يشير الشاعر إلى أنّ التضامن العربيّ ليس مجرد فكرة أو شعار، بل هو قوّة حقيقيّة قادرة على مواجهة الظلم والتحدّيات؛ فبفضل هذه الوحدة، يصبح العرب أكثر قدرة على الدفاع عن أوطانهم وحماية حقوقهم. يؤكّد الشاعر أنّ هذا التكاتف هو السلاح الأقوى الذي يمكنه هزيمة الأعداء وإفشال مخطّطاتهم، وأنّه عندما تتوحد الصفوف وتتعاقد القلوب، يتحقّق النصر وتستعيد الأمّة مجدها وعزّها:

والوحدة الكبرى ستحرق باغياً والقدس للأحرار لا لليهود

(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٥٨)

يتحدّث هذا البيت عن الوحدة العربيّة الكبرى التي ستلتهم الظالمين وتضع حدّاً لعدوانهم. يؤكّد الشاعر أنّ القدس وفلسطين تنتميان إلى شعبهما الفلسطينيين الذين يعيشون فيها بكرامة وعزّة كالأحرار الحقيقيين، وليس للمحتلّين الإسرائيليين الذين اغتصبوا الأرض وسلبوا حقوق أهلها. إنّ قوله (الوحدة الكبرى ستحرق باغياً) استعارة يتمّ فيها تصوير الوحدة بالنار التي تحرق الظالمين، ممّا يدلّ على قوّتها وتأثيرها الحتميّ في مواجهة الاحتلال. في الشطر الثاني جاء تعبيره (القدس للأحرار لا ليهود) تأكيد مباشر ينير الهوية الحقيقيّة للقدس، وربطها بالحرية والنضال بدلاً من الاحتلال والعدوان. يعكس الشاعر في هذا البيت إيمانه العميق بأن الحق لا بدّ أن ينتصر، وأنّ وحدة العرب هي السبيل لاستعادة فلسطين من أيدي الغاصبين.

في موضع آخر من القصيدة، يشبّه الشاعر هذه الوحدة العربيّة الكبرى بنجم ساطع يضيء سماء الأمة. يعبر هذا التشبيه عن انعدام الأمل الذي تحمله الوحدة في قلوب الشعوب العربيّة، فهي كالنور الذي يبدد ظلام الاحتلال والفرقة، وكالهدى الذي يرشد الأمة نحو النصر والتحرّر، لكنّ هذه الوحدة ليست متاحة الآن؛ لذلك يحاول الشاعر أن يعبر هذا المرّة في الأبيات التالية عن الخذلان والإحباط في تحقيق الوحدة الكبرى:

الوحدة الكبرى تلوح كنجمة كيف السبيل لنجمة التوحيد
كنا ظنّناها تلوح قريبة فإذا بها تأبى على التحديد
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٥٩)

يعود معروف رفيق مرّة أخرى ليؤكد على أهميّة الوحدة العربيّة الكبرى، مشبّهاً إيّاها بنجم متألّق يشعّ في قلب العالم العربيّ وينير دربه ويقوده نحو العزّة والكرامة. مازال شعراء المقاومة يدعون إلى الوحدة لتضافر جهود الشعب وتضامنهم للوقوف صفّاً واحداً أمام خطط الأعداء والمحتلّين، ويحتّون على ترك أسباب الفرقة والتشرذم؛ لأنّ هذا الوقف عصيب ومحتاج إل التوحّد والإخاء وتناسق الصفوف. (مسموح، ٢٠٠٧م: ٥٣) يصرّ معروف رفيق أيضاً على ضرورة تواجد الوحدة ويقلق على غيابها، فيصورها كنجمة بعيدة المنال رغم قربها الظاهري؛ من ثمّ يستهدف النجمة كرمز للوحدة الكبرى كي يعطى النصّ بُعداً فلسفياً بشأن الصعوبات التي تواجه تحقيق الوحدة العربيّة أو

الإسلامية، رغم الآمال التي انعقدت بها؛ فقلوله (كيف السبيل لنجمة التوحيد؟) سؤال يحمل في طياته التعبير عن الحيرة والبحث عن الحل لتحقيق هذه الوحدة، لكن الشاعر يقرّ بأن الوحدة ما زالت غير محدّدة، غير واضحة الملامح. يشير الشاعر في (إذا بها تأبى على التحديد) إلى استعارة تصوّر الوحدة ككائن يرفض التحديد أو الاقتراب كي يزيد من مدى صعوبة تحقيقها.

يواصل الشاعر تصويره العاطفي لفلسطين، مشبّهاً إيّاها بمجسد ينزف دماً من قلبه، في إشارة إلى معاناتها العميقة وآلامها المستمرة ويرى أنّ السبب الوحيد لهذه الجراح النازفة هو غياب الوحدة العربية الكبرى التي كان من شأنها أن تحميها وتداوى جروحها:

مادام ينزف بالدماء فؤادهُ فالوحدة الكبرى، سرابٌ مبهم
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٦٣)

يُعبّر هذا البيت عن استمرار حالة الألم والحذلان التي كان قد تابعها الشاعر تجاه حلم الوحدة الكبرى. الشاعر يربط بين نزيف الفؤاد بالدماء وبين استحالة تحقيق الوحدة مشيراً إلى أن الوضع الحالي من الصراعات والنزاعات يجعل الوحدة الكبرى مجرد سراب لا يمكن تحقيقه. إنّ كلامه في (ينزف بالدماء فؤاده) يضمن تشبيه فلسطين بجثمان إنسان ينزف، هادفاً إلى الألم والمعاناة المستمرة الناجمة عن استمرار الجراح والنزاعات في الأمة سواء على مستوى الحروب أو الانقسامات السياسية. يصف الشاعر في الشطر الثاني الوحدة بأنّها سراب غامض، أي لا يمكن الوصول إليها في ظلّ هذا النزيف المستمر. يتبنّى الشاعر في هذا البيت منظوراً مختلفاً وأكثر واقعية، حيث يعبر عن شكوكه في حقيقة هذه الوحدة؛ فهو يرى أنه طالما أنّ قضية فلسطين لا تزال قائمة، وأنّ هذه الأرض ما زالت تنزف وتُقدّم الشهداء، فإنّ الوحدة العربية الكبرى تبقى مجرد سراب غامض وغير واضح المعالم. هذه الرؤية تشاؤمية حزينة، إذ يستخدم الشاعر الجملة الشرطية (ما دام ... ف) ليوضح العلاقة بين استمرار النزيف واستحالة تحقيق الوحدة ثمّ يختتمها بالجملة الاسمية (الوحدة الكبرى سراب مبهم) ليشدّد على ثبات واستمرار هذا الشعور بالضياع واللاجدوى. بهذه الرؤية النقدية، يتوصّل

الشاعر إلى أنّ الوحدة لا يمكن أن تكون حقيقيّة ما لم تتحقّق على أرض الواقع عبر أفعال ملموسة، وليس فقط من خلال الشعارات، وأنّ الاختبار الحقيقيّ لوحدة العرب هو قدرتهم على تحرير فلسطين وإنهاء معاناتها.

ج: الجهاد

الجهاد هو محاربة الأعداء واستخدام القدرة والجهد باللسان والعمل؛ فيعرف بـ «قتال من ليس لهم ذمّة من الكفّار» (مصطفى والآخرون، ٢٠٠٤م: ١٤٢) يرتبط الجهاد في أدب المقاومة بفكرة الكفاح المسلّح ضدّ أعداء الإسلام، وهو معركة تُخاض لإرضاء الله وتحقيق الأهداف الإلهيّة والإنسانيّة لتحرير الشعوب من نير الظلم بحيث إنّ ترك الجهاد يؤدّي إلى الذلّ والهوان. يؤكّد معروف رفيق في شعره دائماً على أهميّة الجهاد في النضال، ويراه وسيلة لاستعادة الحقوق المسلوبة. لا يتناول معروف رفيق مفهوم الجهاد في أشعاره من الناحية الدينيّة فحسب، بل يستخدمه كرمز للكفاح والنضال في سبيل تحقيق العدالة واستعادة الحقوق:

إنّ الجهادَ طريقُ كُلِّ مضَيِّعٍ والحقُّ يُطلَبُ باللسان المُشرِّع
بالنارِ بالدمِ بالجهادِ، بثورةٍ بأزيزِ طائرةٍ تبيد المدعى
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٥٥)

ظُهر هذا القطاع من الشعر نزعة حماسيّة وثوريّة، وقد يكون مستوحى من الأحداث السياسيّة أو النضالات الوطنيّة التي أثّرت في الشاعر. يُبرز شعر المقاومة قيم التضحية والفداء، ويذكر الأجيال بحقوقهم المغتصبة وواجبهم في الدفاع عنها، كما يعمل على استنهاض همم الناس، وحثّهم على المشاركة في النضال بكافة أشكاله. (خضري، ٢٠١٩م: ٩١) يؤمن الشاعر بأنّ الجهاد هو المسار الذي يجب أن يسلكه جميع من سُلبت حقوقهم، وأنّ استعادة الحقوق لا تتحقّق إلا عبر الجهاد. يجب أن يكون هذا الجهاد شاملاً، ومصحوباً بالنار، والثورة، والدم. هذا التعبير قويّ يوحي بأنّ النضال يجب أن يكون واسع النطاق، وعنيفاً، وثورياً. هنا يؤكّد الشاعر على أن الجهاد ليس مجرد خيار، بل ضرورة حتميّة لكلّ من تعرّض للظلم؛ فيتمّ تصوير الجهاد على أنّه وسيلة وحيدة

فعالة لاستعادة الحقوق، وليس مجرد نداء أخلاقى أو قانونى. شطر (إنّ الجهاد طريق كلّ مضى) يدلّ على تعميم فكرة المقاومة بحيث لا تكون فردية بل جماعية وشاملة. من الواضح أنّ هذا المقطع ينتمى إلى أدب المقاومة أو الشعر الثورى، حيث يتمّ تسليط الضوء على العنف كأداة للتغيير؛ من ثمّ يستخدم الشاعر كلمات مثل "النار، الثورة، الدم" ليعزّز الطابع الحماسى والملحمى للنصّ، ممّا قد يعكس تجربة اجتماعية أو سياسية معينة.

لم يقتصر مفهوم الجهاد فى شعر المقاومة على حماية الأرض والوطن فحسب، بل امتدّ ليشمل أيضاً الدفاع عن العقيدة الإسلامية والقيم الروحية التى تُشكّل هوية الشعب الفلسطينى والعديد من الشعوب الإسلامية. (مسبوق واسدى، ٢٠١٥م: ١٠٧) يرى الشاعر فى موضع آخر أنّ الجهاد نابع من العقيدة العلوية، وليس مجرد نتيجة للخطابات الحماسية. الشاعر يربط مفهوم الجهاد بالعقيدة العلوية، أى بالمبادئ المرتبطة بأهل البيت، وخاصة الإمام على بن أبى طالب الذى يُعرف بشجاعته ونضاله فى سبيل العدالة. يحثّ الشاعر أبناء وطنه على فهم الجهاد باعتباره التزاماً حقيقياً وليس مجرد شعار أو انفعال عاطفى ويرفض فكرة أن الجهاد مجرد شعارات أو خطابات حماسية، بل يراه التزاماً إيمانياً وعقائدياً:

يا إخوتى إنّ الجهاد عقيدةٌ علويةٌ ليست بحورا يُدعى
ليست بأقوال تفيض حماسةً ليست بما قال اللسان الأذلق
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٧٣)

تعكس الفكرة الواردة هنا منظوراً أيديولوجياً يرى فى الجهاد استمراراً لخطّ الإمام علىّ ونهجه فى مواجهة الظلم أى اعتبار القيم المرتبطة بالإمام علىّ (ع)، مثل الدفاع عن المظلومين، مقاومة الظلم، والتضحية فى سبيل الحقّ. يتبنّى الشاعر نهجاً توجيهياً ودّياً فى خطابه لمواطنيه؛ لأنّ استخدام اللغة الوعظية والتشبيه يجعل الرسالة أكثر تأثيراً وإيحاءً بضرورة الفعل بدلاً من الكلام العنيف. يخاطب معروف رفيق أبناء وطنه بطريقة ودّية، ويؤكد لهم بأسلوب وعظي أن مسألة الجهاد عقيدة سامية، وليست أمراً يمكن استنشاقه كالبخور، بل يجب الوصول إليها عن وعى وإيمان صادق، وهى تتطلب

الجهاد والمثابرة؛ فيتكوّن أدب المقاومة فى الشعر «ضمن إطار من الالتزام بقدرسيّة الكلمة والإيمان الذى لا يتزعزع بدورها وقيمتها والتمسك بمسؤولياتها كسلاح أساسى فى حركة المقاومة التى تشمل معنى أوسع بكثير من محرّد المقاومة المسلّحة.» (كفانى، ١٩٦٨م: ٧٥) يوضّح الشاعر أنّ الجهاد ليس محرّد كلمات وخطابات تثير الحماس أو تُقال بلسان فصيح، بل هو فعل يجب تحقيقه وتنفيذه؛ فقول الشاعر إنّ الجهاد ليس من أقوال تفيض حماسة، تميّز بين الجهاد الحقيقى الذى ينبع من الإيمان العميق، وبين التحريض العاطفى أو الشعارات التى قد تكون مؤقتة.

يحاول الشاعر فى قصيدة أخرى تقديم تعريف مختلف للجهاد وإعادة تأطير مفهومه، فلا يعتبره محرّد فكرة نظريّة أو شعارات حاملة للخطابات الفارغة، بل يجب أن يكون عملاً حقيقياً متناسباً مع الاتجاهات الثوريّة والإصلاحية التى تنتقد الخطابات الفارغة وتدعو إلى العمل والتغيير الفعلى:

لغة الجهاد، صليل سيف مُصلّتٍ لا ألسنٌ سلّت من الأغمادِ
لغة الجهاد قنابل ومدافع ودمٌ يراق وروعهُ استشهادِ
(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٩٣)

يؤكد الشاعر على قناعته بشأن الجهاد، مشيراً إلى أنّ الجهاد أشبه بصوت السيف المسلول من غمده، وليس كصوت اللسان الذى يُستلّ من غمده. فهو يرى أن لغة الجهاد هى لغة القنابل والمدافع والسلاح، والدم الذى يراق دفاعاً عن الوطن وتحريره، والجسد الذى يتعطّش للشهادة. يعزّز الشاعر رؤيته للجهاد باعتباره خطوة عملية ولا مجرد خطاب أو نقاش فكرى، فى الواقع يستخدم الشاعر صوراً مجازية قوية لتوضيح الفرق بين الجهاد الحقيقى القائم على السلاح والتضحية، وبين الخطاب الذى يفتقر إلى الفعل. هذا هو الكفاح المسلّح فى فكرة المقاومة يعنى «العمل الهجومى بواسطة كافّة أنواع العنف المتاحة فى مواجهة الاحتلال وأحد أساليب المقاومة التى تعتبر هى الأخرى أسلوباً للحركات التحريرية» (شيماء ويمينة، ٢٠١٩م: ١٠)؛ فقول الشاعر (لغة الجهاد قنابل ومدافع) يشير إلى أنّ الجهاد لا يكون إلّا بالقوّة والصدام العسكرى وكذلك قوله (دمٌ يراق وروعهُ استشهاد) تأكيد على أنّ التضحية جزء أساسى من الجهاد، وأن

الفداء بالنفس مطلوب لتحقيق الحرّية. هذا النوع من الخطاب الشعريّ يتماشى مع أدب المقاومة الذي يمجّد القتال والتضحية في سبيل الوطن ويمكن أن يكون مرتبطاً بحركة تحرّرية أو خطاب ثوريّ ضدّ الاحتلال أو الاستبداد حيث يتمّ التأكيد على القوّة كوسيلة لاستعادة الحقوق.

د: تكريم الشهيد

إنّ الشهادة في مختلف الأجيال العربيّة، سواء القديمة أو الحديثة، تُعدّ جزءاً أساسياً من النسيج الثقافيّ والتربويّ، حيث تعمّقوا في جوهرها، وطبقوها، ويسعون إلى تجسيدها في واقع حياتهم العمليّة؛ فإنّها شهادة يتسابق فيها المؤمنون بعضهم مع بعض بطريقة لا يفعلون مثلها حياة الدنيا وزينتها. (رزقة، ٢٠٠٤م: ٥١) الشهادة ليست مجرد واقعة فردية، بل هي قيمة مترسّخة في الوعي الجمعيّ العربيّ؛ فإنّها ليست مجرد موت، بل هي انتقال من حياة إلى حياة أخرى عند الله حيث يُمنح الشهيد مكانة خاصة. يستخدم الشاعر أوصافاً جميلة في مدح الشهداء تعبيراً عن مكانتهم الرفيعة وتضحياتهم العظيمة، فيعتمد على صور حيّة ومؤثّرة لإبراز قدسية الشهادة ويميل إلى مدح الشهداء وهو ليس مجرد تعبير عن الإعجاب، بل وسيلة لإلهام الأجيال القادمة. يهدف الشاعر إلى جعل الشهادة قيمة يُحتذى بها، وليس مجرد حدث مأساويّ وحينئذ يستخدم التشبيه والاستعارة ليجعل من الشهداء رموزاً للنور والتضحية:

على ثغره بسمّة كالصباح ومن دمه قبسٌ قد بدا

دعته فلسطين أنت الفتى وإنّي أنا الأم، لبّ النداء

(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٤٩)

يصف الشاعر الشهداء مشبّهاً ابتسامتهم بالصباح من حيث النور والجمال، ومشبّهاً دماءهم بشرارة النار المتوهّجة في احمرارها وتلهبها. هذا الأسلوب الأدبيّ يعزّز الارتباط العاطفيّ والروحيّ بين المجتمع وقيم الجهاد والتضحية، من ثمّ يؤكّد الشاعر لمخاطبيه أن فلسطين قد نادّت شباباً مثلكم، وأنّه من واجبنا تلبية نداء هذه الأرض، والدفاع عنها وحمايتها. إنّ الشاعر الذي يلتحم بمجتمعه ويكون واعياً لما يجري حوله،

فإنّه يعبر عن القيم الاجتماعية والإنسانية في المجتمع بوصفه فرداً يبذل جهده ووقته ويضحى بدمه ونفسه لدفع القهر والاضطهاد. (زعر، ٢٠٠٨م: ٦٠) إنّ قول الشاعر (على ثغره بسمّة كالصباح) تشبيه يبرز الأمل والإشراق حتى في لحظة الاستشهاد، وكأنّ الشهداء يضيئون بدمائهم طريق الحرية. وقوله (من دمه قبس قد بدا) تشبيه يوحى بالحويّة والقوّة حيث يُصوّر الدماء وكأنّها شرارات تضيء مسيرة النضال وتلهب المشاعر. الشاعر لا يكتفى بوصف الشهداء، بل يخاطب جمهوره مباشرة، داعياً إياهم إلى استلهم روح الجهاد والتضحية. إنّ توجيه النداء إلى الشباب يحمل بعداً تعبويّاً، حيث يصوّر القضية الفلسطينية كواجب يجب الاستجابة له وذلك أنّ فلسطين ليست مجرد أرض في النصّ، بل رمز للكرامة والواجب، ممّا يجعل الرسالة ذات طابع وجدانيّ وقوميّ.

يبحث الشاعر في الحديث عن الشهادة عن نماذج مثالية يحتذى بها جمهوره؛ لذلك يلجأ إلى من كانوا شعراء وشهداء في آن واحد. يمكن استخدام هؤلاء الأشخاص أن يثير التأثير العاطفي والروح الحماسية في المخاطب سويّاً؛ لأنّهم لم يكونوا مجرد منظرين، بل دفعوا حياتهم ثناً لمبادئهم. من شعراء كبار ربطوا في تأريخ الأدب العربي والإسلاميّ الكلمة بالنضال، عبد الرحيم محمود بوصفه شاعراً فلسطينيّاً استشهد في معركة ضدّ الاحتلال وكان شعره وسيلة لإلهاب المشاعر وتحفيز الأجيال؛ لذلك يجعل معروف رفيق شعره صوته في المقاومة:

شهيّد شاعرٌ والدهرُ يَروى قصائدهُ التّي تَروى صراعه
وجيلٌ قد تعلّم من رُؤاهُ وقارعَ مثلهُ منذُ اليقاعه

(رفيق، ٢٠١٣م: ٥٢٧)

يذكر الشاعر عبد الرحيم محمود بوصفه شاعراً شهيداً، حيث أصبحت الأيام نفسها راويةً لأشعاره. إنّ إدراج أسماء هؤلاء الشعراء يهدف إلى تقديم نماذج تربويّة وأخلاقيّة للقارئ، مما يدفعه إلى التأمل في معاني الجهاد والتضحية والشهادة. يجمع الشاعر هنا بين الهويّة الأدبية (الشاعر) والهوية النضاليّة (الشهيد)، مما يربط بين الكلمة والفعل وذلك أنّ عبد الرحيم محمود لم يكن مجرد شاعر يكتب عن الجهاد، بل كان جزءاً منه،

حيث استشهد فى معركة الدفاع عن وطنه. هذه الاستراتيجية شائعة فى الأدب المقاوم، حيث يتم التركيز على الشخصيات التى جسدت مبادئها فى الواقع وأعطت الشعر مصداقية أكبر؛ لأنّ الشاعر الشهيد لا يقول ما لا يفعل، بل يكون شعره صدى لحياته واستشهاده. أسلوبه يمزج بين الخطاب الحماسى والصور الشعرية القوية، مما يجعله نموذجاً للشاعر الذى يؤمن بقضيته حتى آخر لحظة ويجسد معانى الشهادة فى حياته.

ز: رفض الشرق والغرب

يعبر الشاعر عن رؤيته الواضحة لضرورة الاستقلال ورفض التبعية للشرق أو الغرب. يرى أن الاعتماد على القوى الخارجية ليس حلاً للمشاكل الداخلية، بل قد يؤدى إلى مزيد من التبعية وفقدان الهوية؛ فيؤكد أن الحل الحقيقى يكمن فى الاعتماد على الذات والوحدة الداخلية، حيث يمكن للأمة أن تحقق النجاح والتقدم دون الحاجة إلى دعم خارجى. هذا الموقف يبرز من الشاعر موقفاً وطنياً وقومياً، ويعكس إيمانه بقدرة الأمة على مواجهة التحديات وتحقيق الاستقلال الحقيقى:

يا أمتى... لا الشرق يشفى علتى يا أمتى والغرب هدد تِلادى

فتحررى يا أمتى، وتحركى هُبى، فأقصى المسلمين يُنادى

(رفيق، ٢٠١٣م: ٤٩٢)

هنا يتحدث الشاعر عن عدم الارتباط بالشرق أو الغرب، ويعتقد أن هذا الارتباط لا يحلّ أى مشكلة. هو يرى أن الاعتماد على القوى الخارجية، سواء كانت شرقية أو غربية، ليس حلاً للقضايا الداخلية، بل قد يؤدى إلى مزيد من المشاكل ويفاقمها. هذا الموقف يعكس التزام الشاعر بالقيم الوطنية والثقافية ويدلّ على إيمانه بقدرة الأمة على حلّ مشاكلها دون الحاجة إلى دعم خارجى. شعر المقاومة يتشأءم بالأجانب ويذهب إلى أن «المستعمر حينما يتناول على بلد يحو الأمن ويجرّ الفوضى مرتدياً لباس الصداقة». (متقى زاده وآخرون، ٢٠١٥م: ٩٤ و٩٣) فى هذا الموضع يخاطب معروف رفيق أمتّه، داعياً إياهم إلى عدم الاعتماد على الشرق أو الغرب؛ لأنّ التاريخ يشهد بأنّ الاتكال على هاتين القوتين لم يجلب لأى أرض سوى الخسائر. يحثّ الشاعر شعبه

على الوقوف على أقدامهم والتحرّك إلى الأمام بإرادتهم الخاصّة، كما يشير إلى ضرورة الاهتمام بالمسجد الأقصى، مؤكّداً أنّه يجب أن يكون جزءاً أساسياً من السياسة الجماعيّة للمسلمين في جميع أنحاء العالم، إذ إنّ ملك لجميع المسلمين. هذه الفكرة تعكس البعد الإسلاميّ للقضيّة الفلسطينيّة، حيث يعتبر الأقصى رمزاً للوحدة الإسلاميّة وضرورة الحفاظ عليه جزءاً من مسؤوليّة الأُمّة الإسلاميّة.

يحتّ الشاعر أمّته على اتّخاذ خطوات فعّالة نحو بناء مستقبل مستقل بعيداً عن تدخّلات القوى الأجنبيّة. هذه الدعوة تعكس رؤية إيجابيّة حيث لا يكتفى الشاعر بانتقاد التبعيّة، بل يطرح بديلاً يتمثّل في العمل الذاتيّ والسعي نحو التقدّم. يعبرّ الشاعر عن رفضه القاطع لأيّ سياسة تعتمد على الصين وروسيا، معبراً عن موقفه الحادّ تجاه هذه التبعيّة، كما يعتبر إسرائيل سبباً في نهب ثروات الدول الإسلاميّة وجلب الشقاء، لاسيما لفلسطين. هذا الموقف يتماشى مع رؤيته السابقة حول ضرورة الاستقلال السياسيّ للدول الإسلاميّة وعدم الارتهاق للقوى العظمى ويعكس التزامه بالقضيّة الفلسطينيّة باعتبارها رمزاً للمقاومة ضدّ الاستعمار والاحتلال:

وصينيّ، وروسيّ عميلٌ وآخر قد تأمّرَ بالدُّلار
وإسرائيلُ تحصدُ ما زرَعْنَا وتقطّف ما رَعَيْنَا من ثَمَارِ
توسّع من مخطّطها جهاراً وكانت قبل تعملُ في استتار
(رفيق، ٢٠١٣م: ٥٦٦)

يعود الشاعر مجدّداً إلى القضايا السياسيّة، موصياً مخاطبه بأن للصين وروسيا عملاء في الدول العربيّة، بينما تقوم الولايات المتّحدة بشراء ولاءات العديد من الأشخاص بأموالها. أما إسرائيل فإنّها تحصد ثمار تعب الفلسطينيين، وتأخذ كلّ ما زرعه لأنفسها. هؤلاء الأعداء يهبون المكونات الأساسيّة للأُمّة، أي إرثها الحضاريّ ثمّ يستخدمون نفس العقليّة التي سلبوها ليطوّروا شعوبهم. شعر المقاومة يلعب دوراً حاسماً في تحذير الشعب من الوعود الكاذبة والمبادرات الخادعة التي يستخدمها الاستعمار أو الاحتلال لتحقيق أهدافه وإضعاف المقاومة (معروف وپورحشمتي، ١٣٩٦ش: ١٢١)؛ فيمكن اعتبار هذه الأبيات امتداداً لخطاب مقاوم أوسع يرى في الاحتلال والتدخّلات

الخارجية تهديداً للهوية والسيادة الوطنية؛ من ثم يصعد الشاعر لهجته تجاه التبعية السياسية مؤكداً أن الاستقلال الحقيقى لا يكون فى التوجه إلى الصين وروسيا، بل فى بناء سياسة ذاتية مستقلة. كما يسلط الضوء على الدور السلبي لإسرائيل فى المنطقة، مما يعكس موقفاً حاداً ضد الاحتلال والهيمنة السياسية والاقتصادية. رفض الاعتماد على الصين وروسيا يشير إلى وعى الشاعر بأن هذه القوى، مثل غيرها، قد لا تسعى إلا لتحقيق مصالحها الخاصة على حساب الدول الصغرى. يبرز الشاعر إسرائيل كعامل رئيسى فى أزمات العالم الإسلامى، وخاصة القضية الفلسطينية. تركيزه على إسرائيل كعامل للنهب والشفاء يعكس رؤية منتشرة حول واقع الاحتلال الإسرائيلى ويدل على غايته فى الاستيلاء على أراضى وثروات الفلسطينيين وسياسة الاستيطان والاستغلال الاقتصادى. هذه الصورة تعزز فكرة أن الظلم والاستغلال لا يتوقفان من تلقاء أنفسهما، بل يحتاجان إلى مقاومة مستمرة.

النتيجة

١. يلجأ معروف رفيق إلى شعر المقاومة كأداة لتوعية المجتمع وتحسيد آلام المجتمع، ويظهر التزامه بالقضية الفلسطينية فى ديوانه «فلسطين.. الجرح والطريق» بعناصر ومقومات المقاومة المختلفة التى تتراوح بين استدعاء المكان، واستلهام المعتقدات الدينية، ورفض السياسات الوطنية والعالمية لإذكاء روح المقاومة فى النفوس.
٢. من أهم مقومات المقاومة فى هذا الديوان استدعاء فلسطين، والوحدة العربية، والجهاد، وتكريم الشهداء، ومحاربة الكفر، ورفض السياسة الانقيادية للشرق والغرب. تشكل هذه العناصر إطاراً فكرياً وثقافياً للمقاومة وتدوى التزام الشاعر بقضية شعبه وأمتة.
٣. يقوم الشاعر باستدعاء فلسطين كقضية مركزية تمثل فلسطين جوهر المقاومة حيث يتمحور الديوان حول الاحتلال والظلم الذى تتعرض له الأرض والشعب الفلسطينى. يظهر الشاعر إماماً عميقاً بأوضاع هذه الأرض والعالم العربى؛ فهو

- لا يقتصر على وصف المعاناة، بل يتناول الأبعاد السياسيّة والاجتماعيّة لها أيضاً.
٤. يدعو الشاعر إلى الوحدة العربيّة مؤكداً أنّ التفرّق هو سبب ضعفها أمام الاحتلال ويرى أنّ الوحدة العربيّة هي الحلّ للخروج من مشاكل وطنه، تلك الوحدة التي نشأت منذ القدم بين الدول العربيّة والتي يجب اليوم أن تحظى باهتمام أكبر وتعزيز أقوى. هذه الوحدة بين الدول العربيّة ليست عند الشاعر فكرة جديدة، بل لها جذور تاريخيّة، ولكن لا بدّ من إعادة إحيائها وتعزيزها.
٥. يُقدّم الشاعر نقداً لاذعاً للسياسات المتخاذلة التي تساهم في إضعاف المقاومة الفلسطينيّة والعربيّة، ويرفض الاعتماد على الشرق أو الغرب؛ فهو لا يخدم مصلحة الوطن، بل يجعل الدول الصغيرة أداة في يد القوى العظمى؛ فمن هنا يدعو إلى تحقيق الاستقلال الكامل عبر الإرادة الوطنيّة.
٦. يُؤكّد معروف رفيق على تحرير القدس ويرى أنّ هذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلّا من خلال جهاد شامل وفعال، وهو واجب فرضه الإسلام على المسلمين، كما يدعو شعبه إلى السير على درب الشهداء، ومواجهة الكفر، والمساهمة بأيديهم في بناء نهضة الوطن.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- پورحشمی، حامد؛ وکبری روشنفکر. (١٣٩٩ش). «جلوه‌های پایدارى افغانستان در شعر جابر قمیحه، بررسی موردی دیوان (الجهاد الأفغان أغنی)». نشریه زبان و ادبیات عربی، السنة ١٢، شماره ١. صص ١٤٦-١٢٧
- جمعة، حسین. (٢٠٠٩م). ملامح فی الأدب المقاوم فلسطين نموذجاً. دمشق: الهيئة العامّة السوریّة للكتاب. حلوانی، فادية الملیح. (٢٠٠٥م). «تجلیات ثقافة المقاومة فی الشعر العربی المعاصر». مجلّة العلوم الإنسانیّة. جامعة محمد خیزر بسکرة. العدد ٨. صص ٢٣٢-٢١٣
- خضری، علی. (٢٠١٩م). «مظاهر أدب المقاومة فی شعر الشاعر الفلسطيني یوسف الخطیب». مجلّة اللغة العربيّة وآدابها، الجزائر. المجلّد ٧. العدد ١. صص ١١٠-٨٥
- رزقة، یوسف. (٢٠٠٤م). أعلام شهداء المنطقة الوسطی. غزة: المكتبة المركزيّة.
- رفیق، معروف. (٢٠١٣م). الأعمال الشعریّة الكاملة. الطبعة ١. مصر: مكتبة جزيرة الورد.

- زعر، أحمد موسى. (٢٠٠٨م). الشهادة وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد عام ١٩٦٧. رسالة ماجستير. الجامعة الإسلامية: غزة.
- سليمي، علي؛ وفاطمة سليمي. (١٣٩٠ش). «برسي تطبيقي نماد "شير" در شعر نيما يوشيج و خليل مطران (تأملی در نگاه متفاوت دو شاعر)». فصلنامه نقد و ادبيات تطبيقي. دانشگاه رازی. کرمانشاه.
- سال ١. شماره ٢. صص ١٧٤-١٥٩
- شكري، غالي. (١٩٧٠م). أدب المقاومة. القاهرة: دار المعارف.
- شيماء، بن سعيد؛ وبوخونس مينة. (٢٠١٩م). أدب المقاومة دراسة في الجذور والآفاق. رسالة ماستر. الجزائر: جامعة ابن خلدون بتيارت.
- كنفاني، غسان. (١٩٦٨م). الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨. الطبعة ١. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- ماضي، أريج إبراهيم. (٢٠١٣م). الاتجاه القومي والديني في شعر أعلام المقاومة الفلسطينية دراسة تحليلية. رسالة ماجستير. الجامعة الإسلامية. غزة.
- متقي زاده، عيسى؛ وإسماعيل حسيني أجداد؛ وحامد پورحشمي. (٢٠١٥م). «المقاومة في الشعر الجزائري والإيراني دراسة مقارنة بين مفدي زكريا وفرخي يزدي». مجلة إضاءات نقدية. السنة ٥. العدد ١٨. صص ٩٨-٧٧
- مدني، جلال الدين. (١٣٩٢ش). مباني كليات علوم سياسي. المجلد ١. تهران: پايدار.
- المرعشلي، أحمد؛ وعبد الهادي هشام؛ وأنيس صائغ. (١٩٩٦م). الموسوعة الفلسطينية. المجلد ٢. الطبعة ٢. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية.
- مسبوق، مهدي؛ وسارا اسدي. (٢٠١٥م). «مظاهر المقاومة في شعر ابن القيسراني». مجلة إضاءات نقدية. السنة ٥. العدد ١٨. صص ١٢٠-٩٩
- مسمح، أمين سليمان. (٢٠٠٧م). الاتجاه الاجتماعي في الشعر الفلسطيني بين انتفاضتين (١٩٨٧-٢٠٠٥م). رسالة ماجستير. الجامعة الإسلامية. غزة.
- مصطفى، إبراهيم؛ وأحمد حسن الزيات؛ وحامد عبدالقادر؛ ومحمد علي النجار. (٢٠٠٤م). المعجم الوسيط. الطبعة ٤. مصر: مكتبة الشروق الدولية.
- معروف، يحيى؛ وحامد پورحشمي. (١٣٩٦ش). «النزعة الثورية وأصداءها الدلالية والفنية في شعر عبد الرحيم محمود». مجلة دراسات الأدب المعاصر. السنة ٩. العدد ٣٣. صص ١٢٥-١٠٥
- ملأ إبراهيمي، عزت. (١٤٣٧ق). «الثراء الفني لأسلوب الاستفهام في الشعر الفلسطيني المقاوم». مجلة آفاق الحضارة الإسلامية. السنة ١٩. العدد ١. صص ١٤٥-١٢٣
- الملائكة، نازك. (١٩٨١م). قضايا الشعر المعاصر. الطبعة ٦. بيروت: دار العلم للملايين.
- الهذلي، أبو ذؤيب. (٢٠١٤م). ديوان أبي ذؤيب الهذلي. الطبعة ١. مصر: مركز الدراسات والبحوث الإسلامية.